

حول جزيرة العرب

نظر تاريخي اجتماعي للاب لويس شيخو اليسوعي (تابع)

اليمن وانتمها

نظر في احوال اليمن قبل الاتراك

دعنا الان ننتقل من اواسط جزيرة العرب الى جنوبها ونسرح رائد البصر في احوال اليمن فان هناك ايضاً معانيات يرد القراء الوقوف على حقيقتها وكثيراً ما كررت الصحف اسم امامها يحيى هذا القطر الكبير قد لب في كل اطوار تاريخه دوراً ذا شأن وذلك لمدّة خواص امتاز بها كحسن موقعه وسعة ارجائه وطيب هوائه وعران بلدانه وكثرة خيراته وغو عدد اهله البالغين سته ملايين من النفوس مع اختلاف مناطقه من جبال شاهقة واوردية عميقة وسواحل وثغور بحرية فاستجمت اصقاع اليمن ان يدعواها القديما باسم العربية السعيدة . وكان العرب يقسمونها الى نيف وعشرين ايالة يدعونها بالمخاليف كالتصريفات في ايام الاتراك وكانت المير معدودة من اليمن قبل ان تفصلها عنها الدولة العثمانية فجارها سنجقاً منفرداً

وقد عرف اهل اليمن منذ سالف الازمان بالاباء . وحب الاستقلال والنفور من كل سلطة اجنبية كما يشهد عليه تاريخهم في الجاهلية على عهد ملوك حمير ثم توالى عليهم الدول بعد الاسلام وكثر بينهم الخوارج

وكان الحكم فيهم اولاً للخلفاء . لشدة وطأتهم الى ان اخذ جيل الخلافة بالانتقاص فاستقل اليثيون وتولى عليهم الزياديون نسبة الى محمد بن زياد من السنة ٨١٩ الى ١٠١٨م وابن زياد هو الذي عمر مدينة زبيد وسكنها (سنة ٨٢٠) ثم خلف الزياديين التجاحيون (١٠٢١ - ١١٥٨م) المنتسبون الى المؤيد فجاح الحبشي الاصل .

ثم صار امرهم الى المهديين المتسعين الى علي بن المهدي (١١٥٠ - ١١٧٣م) ثم الى الايوبيين من نسل صلاح الدين الايوبي (١١٧٣ - ١٢٢٨م) ثم الى السلالة المعروفة بالرسوليين (١٢٢٩ - ١٤٥٤م) ثم الى بني طاهر الى السنة ١٥١٧ وهي السنة التي دخل فيها السلطان سليم بلاد العرب . وكل هذه الدول جعلت كرسيها في زبيد وكان غيرهم يتولون على جهات اخرى من تلك البلاد فاتخذوا مدينة صنعاء كحاضرة ملكهم منهم اليعفوريون نسبة الى يعفور بن عبد الرحمن اول ملوكهم (٨٦١ - ٩٥٦م) والصليحيون المتسبون الى علي بن محمد الصليحي (١٠٣٧ - ١١٠١م) والحداديون التابعون لحاتم بن غشم الحداني (١٠٩٨ - ١١٧٣م) . وملك قسم آخر على عدن واصقاعها وهم الزريميون المتسبون الى كرم الزريمي (١٠٨٣ - ١١٧٣م) . وملك غيرهم في عدة وهم الانثة الريون تبعة قاسم بن محمد الرسي احد الخوارج في ايام الخليفة الامون الباسي من سلالة زيد بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب المعروف بابن زين العابدين الذي صلب بامر الخليفة هشام سنة ٧٣٩م ومن جراء ذلك يدعون بالزيديين

وينسب الى هؤلاء الزيديين اثنتان صنعاء المتولين الى اليوم . والزيديون من اهل الشيعة لا يعترفون بخلافة ابي بكر وعمر وعثمان بل بخلافة علي وسلاطه . ومنهم عدة فرق كالبقرية والسليانية والجارودية واليعقوبية يناقض بعضهم بعضاً ومنهم من يرى رأي المعتزلة . واثنتان صنعاء يتلقبون بامراء المؤمنين ويذنبون التقرد باسمهم ولهم راية حمراء عليها صورة ذي القنار سيف علي بن ابي طالب ولما ظهرت الدولة العثمانية في القرن السادس عشر واستولت مدة على اليمن لم يتنهأ بنو عثمان بملكهم واضطروا غير مرة الى ان يارحوا البلاد لعصيان اهلها على ولايتهم متصرين لاثنتان صنعاء الذين كانوا لا يزالون يطالبون بحقوق الامامة حتى ظفروا بها زمناً طويلاً (١٥٩١ - ١٨٣٠م) . واولهم الامام قاسم بن منصور من سلالة الرسيين السابق ذكرهم . ثم انتقلت الامامة الى زعماء آخرين منهم الامام يحيى الآتي ذكره

على ان سلطة اثنتان صنعاء ربما ضعفت فقام عليهم شرقاء من اهل وطنهم انتزعوا منهم قسماً من بلادهم فملكوا عليها مدة كسلطان لحج وشرقاء ابي عريش وشيوخ

عسير وربما نازع سكان جنوب اليمن اهل شماله فقامت بينهم الحروب وتفاقم الفساد

اليمن والروهايون (١٨٠٥ - ١٨١٣)

قد سبق لنا القول ان الوهابيين في اوائل القرن التاسع عشر تجاوزوا حدود نجد في أيام اميرهم سعود وعبد العزيز وتهددوا الحجاز واليمن ولم يلبثوا ان استولوا على قم كبير من اليمن دون صنعا . وذلك سنة ١٨٠٥ تحت امره شيخ عسير ابي الحكيم المعروف بابي نقطة لعمر عينه . وكان ابو نقطة انحاز الى الوهابيين فأطلقوا يده على اليمن فغزا جهاتها الجنوبية وفتح مدينتي حجة وحديدة وانما تصدى له احد شرفاء اليمن المدعو ابا مسار حنودا كان ابو نقطة فتك به لكن حنودا تظاهر بالخضوع لامير الوهابيين ومن ثم اخذ يعادي شيخ العسير ابا نقطة ولم يزل يعاكسه حتى تمكن من اغتياله فقتله بيده سنة ١٨٠٩ وبسط حكمه على اليمن فحظي اليمن ببعض الراحة

المصريون في اليمن (١٨١٣ - ١٨٤٠)

لما تمخض محمد علي باشا ثم ولده طوسون وابراهيم لمحاربة الوهابيين باغراء سلاطين عمان ووجه المصريين فسكرتهم الى اليمن فضلا عن الحجاز . وفي السنة ١٨١٣ بعث محمد علي الى اليمن احد ضباطه المسمى آغا يوسف . فاجتمع هذا بالشريف حنود وبالامام منصور صاحب صنعا . واقامهما بقاتلة الوهابيين مع الجيوش المصرية فساروا معا وحملوا على خلف ابي نقطة الشيخ تهامي واترعرأ من يده مدينة قنفذة الساحلية ففتحها لكن الشيخ تهامي عاد اليها بمجموعه فاسترجعها منهم . فلما بلغ الخبر الى محمد علي زحف الى المدينة بقوات جديدة فغلب الوهابيين مع ما ابلاوا به من البلاء الحسن للمدافعة عن البلدة ووقع الشيخ تهامي في يد المصريين فارسلوه مضمورا الى الاسنانة فقتل فيها سنة ١٨١٥

وبقي النفوذ المصري عدة سنين سائدا على اليمن حتى قام سنة ١٨٣٢ احد المماليك من رعايا محمد علي فعصى على سيده وهيج عليه قبائل عرب اليمن . وقد عرف هذا الحارجي بلقب تركي . ثم دعي لجهله اللغة التركية باسم تركجه بلنزه

فالمذكور استولى عليّ عليّ وحاديدة فاضطرّ محمّد عليّ الى ان يوجه من مصر جيشاً لمحاربتة ففتح المصريون بمساعدة شيخ البير عليّ مجتنب مدينة عليّ ونهبوها . أمّا زعم القننة فقرأ هارباً من ايديهم والتجأ الى سفينة انكليزية وسافر الى العراق حيث مات حامل الذكر

ثمّ اجتهد المصريون ليوطدوا ملكهم في اليمن لكنهم وجدوا في اهلها من فظاظة الاخلاق والفساد والفتن ما اخرج صدورهم والجاهم الى ان يُجأوا عاصرتهم اولاً من عسير ثمّ من تهامة وباقي اليمن سنة ١٨٤٠ وحصل على اثر جلائهم اضطرابات في أنحاء اليمن وانتبه الانكليز تلك الفرصة بيتاعوا من سلطان لحج مدينة عدن وهي مقلاد بحر الهند سنة ١٨٣٩

وفي تلك الاثناء حاول امام صنعاء السيد محمّد يحيى ان يستولي على تهامة ويردّها الى سلطانة فعمل عليها واحتل معظم مدنها كالحديدة وزيد ومخا ونازعهُ شريف مكة في ملك عليّ وفتحها واحتها بالحجاز

وقام ايضاً شيخ ابي عريش المسمّى بالشريف حسين طامعاً في توسيع نطاق ولايته فاتفق مع شيخ عسير وسار كلاًهما بقبايلهما الى تهامة وانتاوها من ايدي امام صنعاء .

الدولة العثمانية في اليمن

ثمّ قويت شركة الشريف حسين في أنحاء اليمن وعجز امام صنعاء عن قمع سلطته بعد ان ناجزه القتال مدةً فسيرت حينئذ الدولة العثمانية لمحاربتة فيلقاً من جنودها في عام ١٨٤٩ يقوده توفيق باشا فلم يزل يتعمّب آثار الشريف حتّى اضطرّه الى طلب الامان والاذعان الى اوامر السلطان فخلع عليه وجعل له راتباً بقي في حيز المواعيد العرفية . واذا اراد ان يطالب بحقوقه شاع بغتة خبر وفاته والله اعلم بيها (١٨٥١)

فقلدت حينئذ الدولة امارة ابي عريش الشيخ حيدر ابن اخي الشريف حسين وادخلت بلاد تهامة في جملة ممالكها وعينت لتديرها احد عمالها من الباشوات فجعل مركزه في الحديدة

ثم رأى توفيق باشا ما صار إليه اثثة صنعاء من الضعف فظنَّ الوقت مناسباً ليلحق بلادهم بأحكام الدولة فاستدعى الامام محمَّد مجي الى الحديدة وطلب منه ان يعترف بيادة السلاطين على اليمن وان يرضى باقامة ٨٠٠ جندي تركي كحامية في صنعاء وان يُدعى في الصلاة باسم السلطان عبدالمجيد وان تقم مداخيل صنعاء بين الخزينة السلطانية وولاية صنعاء . فخاف الامام ولم يرُ بدأ من الاجابة الى اوامر توفيق باشا فوَّقع على تلك المعاهدة

لكنَّ اهل صنعاء لم يرضخوا لهذه الاحكام وما كادوا يقنون على مضامين المعاهدة ورأوا إمامهم في صحبة توفيق باشا والجنود العثماني ولاسيما اذ سمعوا الخطيب يدعو في الصلاة للسلطان عبدالمجيد بدلاً من انتهم الزيديين حتى شغبوا وقاروا وقتلوا الجنود وخلصوا الامام محمَّد مجي ونصبوا بدلاً منه الامام منصوراً . ولم ينجح من ايديهم توفيق باشا الا بعد ان أُصيب بعدة جراح وفدى نفسه بعشرين الف ريال وبقيت صنعاء في حالة الفوضى بعد ان قاموا على الامام منصور ودعوا بمكانه غالباً بن محمَّد مجي لكنَّ امورهم لم تستقم فكثرت بينهم الاحزاب وزاد الاضطراب وتمددت الجنايات حتى ملَّ الجميع تلك الاحوال السيئة وتيسر للدولة العثمانية فتح صنعاء سنة ١٨٧٢ على يد احمد مختار باشا فقامت بتديريها كما شاءت وخلفت الامام غالباً وارتقت في صنعاء مع راتب معلوم الى سنة وفاته . وكان رؤوف باشا سبق واستولى على السيد فتارت اليمن كلها تحت حوزة بني عثمان

قورة حبه المديبه ابي الامام مجي

اعاد الاتراك النظام في صنعاء اليمن فأخلد اهلها الى الطاعة والسكينة لكن عمال الدولة ما فتوا ان ميِّجوا عليهم خواطر السكَّان بظلمهم وسرَّ تصرفهم الى ان طفت الكأس وبلغ السيل الزبي وذلك للضرائب الفادحة التي يهبطوا بها اعناق اليمنيين ولاسيما في ستمين توالى فيها الجذب فلم يستطع الاهلون الى أدائها سيلاً . وكان في جملة الذين اصابهم عنف الاتراك رجلٌ من ذرية انتهم يُدعى السيد محمَّد بن حميد الدين كان اولاً مسجلاً في الديوان ثم صار قاضياً ولماً رأى ما لحق بواطنيه من الجف والظلم خرج من صنعاء وسكن في الجبال في مقر يدعى غفلة

القدر لآماء فيه بحيث لم يستطع الاتراك ان يحاربوه فدعا السنين الى الاستقلال فلبوا دعوتهم بطيب خاطر واقرؤا ببيادته فشر معهم راية العصيان على الدولة (١٨٩١) واخذ يشن الغارات على مواقع الاتراك ويقوي كل يوم يملكته والدولة ترسل شراذم الجند عليه دون جدوى وبقي على ذلك نحو عشر سنوات فأت سنة ١٩٠١ دون ان يدخل صنعاء.

الامام يحيى

قام في منصبه بعده ابنه الامام يحيى وعمره لا يتجاوز ٢٧ سنة فاقتدى بابيه وان كان دونه ذكاء لكنه توفق بعزمه الى الانتصار من الترك وطردهم من حاضرة اجدادهم سنة ١٩٠٥ بعد ان حصرهم فيها زمناً طويلاً فأفنت المجاعة منهم قسماً كبيراً ثم فلك بالطراير المرسله لاجدثهم تحت قيادة رضا باشا وغالب باشا وفيضى باشا واغتنى بذخائرهم واسلحتهم وتعقب آثار من فر منهم الى السراجل حتى كاد يستأصل شأفتهم وكان احد فيالق الاتراك احتل جبل شحارى فسار اليهم محمود ابن يحيى حميد الدين ففتك بهم واخرجهم من تلك الجهات وقتل السنون احمد عبيد الحارثي الذي كان انضم الى الترك فساعدهم على الامام يحيى. هذا فضلاً عن الامراض الفتالة التي انتشرت بين الاتراك فأودت بحياة الالوف منهم حتى دُعيت اليمن بمقبرة الاتراك

فلما رأى السلطان عبد الحميد ان قوى جبرته خارت دون ضبط السن فكر في وسائل أخرى يصون بها عرشه ويبقي السن في جملة ممالكه فاوفد رسلاً والطافاً الى الامام يحيى ليؤلف قلبه بالجمالة. ثم استدعى الى الاستانة بعض شيخ السن ليطلب قلوبهم ويسكن خواطر مواطنيهم بوعدهم خيراً وبلغ الامام يحيى انه يجعله والياً على السن مدة عشر سنين باسم الحكومة العثمانية ويعين له فئات من الجند ليساعده في تنفيذ اوامره.

فكانت كل هذه الوسائل لا تقنع الامام وذويه وهم لا يرضون بالاستقلال بلادهم. وأعلن في تلك الاثناء بالدستور العثماني فحاولت جمعية الاتحاد والترقي ان ترضي الامام يحيى بالانحياز الى الدولة وعظمت في عينه الدستور ونعمه. واذا لم

يتخضع الامام باقواهم لقامر الة خصماً يدعى المهدي الذي ياتي حرت بينه وبين يحيى
 بهض المناوشات ثم اصطالحا على مقاومة الاتراك
 فأرسلت من الاستانة قوات جديدة الى اليمن وحصلت عدة معارك من السنة
 ١٩٠٩ الى ١٩١١ أصيب فيها اليمنيون ببعض الخسائر . ثم دُعي الامام يحيى مع
 قومه الى الجهاد في الحرب الباقانية فرضي به وتهدد بالارسال ١٠٠,٠٠٠ جندي للدفاع
 عن حوزة الاسلام على شرط ان تعترف الدولة باستقلاله فوعده خيراً وتقرّب الى
 الدولة لكن الحرب البلقانية انتهت قبل ان ينجز بوعده
 ثم أعلنت الحرب العمومية الاخيرة فسجبت الدولة العثمانية جيوشها من اليمن
 لحاجتها اليهم وبقي الامام يحيى آمناً في بلاده . فسعت لديه الدول الاتفاقية وطلبت
 منه الحياد وبُنضت اليه تركية واحلافها وراعت له خاطرأ في حكمه على بلاده
 مستتلاً لكن الامام اصرأ على ثباته في ولاء تركية . وذلك في السنة ١٩١٧ وقد
 استولى على تنفذة من ثغور الخليج العربي . ولم يبلغنا بعد الهدنة خبر عن شؤون
 تلك الجهات (له صلة)

زجلية في وصف الغلاء والجوع والضيقة

منذ مائة وثلاثين سنة

نشرها بمراش وهدمة الكاتب المتفنن عيسى اسكندر الملوف صاحب مجلة (الآثار)

بعد مرور ثلاث سنوات على الحرب الضروس ومشاهدة ما تشيب له رؤوس
 الاطفال من اموالها وقع لي توافق غريب . بينا كنت ابحث بين مخطوطاتي مستقرباً
 الحوادث السالفة وما قيل فيها عثرتُ بينها على سفينة وهي دفتر متطيل قليل
 العرض فاذا فيه زجلية كانتا نُظمت لهذه الايام منذ ذلك العهد البعيد واليك الآن
 وصف هذه السفينة :

هي دفتر بطول نحو عشرين سنتيمتراً وعرض عشرة سنتيمترات يقع في ٧٨